

السيطرة على الإعلام الإنجازات الهائلة للبروباجندا

الكاتب: ناعوم تشومسكي.
الناشر: مكتبة الشروق الدولية.
الصفحات: 62 صفحة.
سنة النشر: 2005 م.



مراجعة: ميرفت إبراهيم*

عن الكتاب

من يقرأ هذا الكتاب يظنُّ، وللوهلة الأولى، أنه يستعرض الأحداث التي تعصف بمجتمعاتنا ودولنا اليوم، وأبرزها أحداث 7 أكتوبر/تشرين الأول، إذ لا يُميّز بين ما يُروى في الكتاب وما يجري في يومنا هذا سوى بعض الأسماء والتواريخ، أما السياسة فذاتها. وهذا، إن دلَّ على شيءٍ فهو أنَّ السياسات المتعاقبة من الدول المتسلِّطة قائمة على المنظومة الفكرية ذاتها، وتكرَّر تاريخًا مليئًا بأعمال العنف والإرهاب بذريعة محاربة الإرهاب.

تبرز أهميَّة الكتاب من خلال محاكاته واقعنا السياسيَّ اليوم، والدور المهمَّ

* طالبة دكتوراه في العلوم الدينية في جامعة القديس يوسف - لبنان.

للبروجاندا الإعلامية المؤثرة بشكل فاعل في تشويه الحقائق وقلب المعايير، ولكن بفارق كبير. ففي يومنا هذا، استخدم القطيع الضال، كما وصفته تلك السياسات، وسائل التواصل الاجتماعي في مواجهة ما تقوم به تلك الدول من بروجاندا إعلامية هدفها تشويه الحقائق، لتكشف للعالم زيف تلك الادعاءات. وقد نجحت تلك المواجهات في قلب موازين القوى، وأبرز دليل على ذلك هو صحوه الشعوب والتحركات الطلابية المؤثرة في الجامعات الغربية، والتي لم يشهد لها مثيل منذ ستينيات القرن الماضي.

السيطرة على الإعلام: الإنجازات الهائلة للبروجاندا

يتناول الكتاب موضوع السيطرة على الإعلام في تسعة عناوين وفاق الآتي:

1. الإنجازات الهائلة للبروجاندا:

يقدم الكاتب ضمن هذا العنوان مفهومين للديمقراطية التي ينبغي أن تتحقق في مجتمع ديمقراطي؛ المفهوم الأول، وهو ما يرد في القاموس من معنى لغوي، يرى أن المجتمع الديمقراطي هو المجتمع الذي يمتلك فيه العامة (الجمهور) الوسائل اللازمة للمشاركة الفعالة في إدارة شؤونهم، والذي تكون فيه وسائل الإعلام مفتوحة وحرّة. وأما المعنى الآخر، وهو مستهجن وشاذ؛ كونه يفيد منع العامة من إدارة شؤونهم ومن إدارة وسائل الإعلام لتبقى تحت السيطرة المتشددة. فالديمقراطية إذاً، بهذا المفهوم، هي الحاكمة والمعمول بها لفترات طويلة، وهي تمتلك أسساً نظرية تشكل قاعدة لها.

يستعرض الكاتب مسار تطوّر فكرة الديمقراطية ودور وسائل الإعلام والتضليل المعلوماتي في ذلك عبر إعطاء أمثلة عن العمليات الدعائية الحكومية؛ ومنها لجنة كريل التي استطاعت خلال فترة قصيرة أن تحوّل المواطنين المسالمين الذين لا يرون أي سبب يدفعهم إلى الحرب، إلى مواطنين تملكهم هستيريا وتعطش لها، ولتدمير كل ما هو ألماني في بداية الأمر. ثم استخدم هذا التكتيك لإثارة الهستيريا نفسها ضدّ الرعب الشيوعي؛ إذ حوت هذه العملية الدعائية قدرًا كبيرًا من الفكرة والتزييف لمذابح ارتكبتها الألمان، وهي قصص اخترعتها وزارة الدعاية البريطانية في سبيل «توجيه فكر معظم العالم»، كما وصفت تقاريرهم السريّة، بحسب قول الكاتب، والفئة الأهمّ المستهدفة من هذا التوجيه هي الأفراد الأكثر ذكاءً الذين

دعموا تلك الأفكار، واستطاعوا - بما يمتلكون من تأثير- أن يُحقِّقوا أثرًا كبيرًا في توجيه فكر باقي أفراد المجتمع؛ وهذا يُعدُّ درسًا تعلمه «هتلر» (Adolf Hitler) وكثيرون غيره، ويُتَّبَع حَتَّى اليوم.

2. ديمقراطية المشاهد:

ينتقل الكاتب في هذا العنوان لِيُبيِّن كيفية منح الديمقراطية بمفهومها الثاني إلى الجمهور، وكيفية السَّماح لهذا الجمهور بأن يمارسها بما يضمن عدم انحرافها عن المسار الذي وُضعت له، وكيفية توظيف العديد من المنظرين الديمقراطيَّين الليبراليَّين وشخصيات إعلامية مرموقة هذا النمط من العمليات الدَّعائية، أمثال «والتر ليبمان» (Walter Lippmann)؛ إذ رأى - هذا الأخير- أن المصالح العامَّة كفيلة تمامًا بخداع الرأى العامِّ، وقدَّم نظرية مُفصَّلة عن الديمقراطية التَّقَدُّمية، فقسَّم المجتمع إلى طبقتين: طبقة متخصَّصة وطبقة القطيع الضَّالَّ.

تُشكِّل الأولى الفئة القليلة من السَّكان التي تتولَّى التحليل وصناعة القرارات والتَّنفيذ وإدارة الأمور بمجملها. وتخدم هذه الفئة مصالح الأفراد الذين يملكون المجتمع ويتمتَّعون بالقوَّة الحقيقيَّة، فتسوق القطيع الضَّالَّ نحو خدمة المصالح التي تُقدِّم له على أنها مصالح عامَّة، ولكنها في واقع الأمر ليست سوى مصالح تلك الفئة المسيطرة التي تحكِّم المجتمع، وذلك عبر استخدام أكثر الأدوات فاعليَّة التي تتمثَّل في يومنا هذا بالوسائل والعمليات الدَّعائية.

وتُشكِّل الطبقة الثانية الغالبية العظمى من السَّكان، وهي القطيع الحائر أو الضَّالَّ. هؤلاء ليسوا سوى مشاهدين لا يحقُّ لهم، انطلاقًا من الديمقراطية الممنوحة لهم، إلا أن يؤيِّدوا أحد أفراد الطبقة المتخصَّصة، وأن يختاروه قائدًا، فهم لا يمتلكون أيَّ حقَّ يُخوِّلهم المشاركة في أخذ القرار أو الفعل.

وهذه الطَّبقيَّة - بحسب منطق مقدِّمها- قائمة على مبدأ أخلاقيَّ متين مفاده عجز الفئة الأكبر من أفراد المجتمع عن إدارة أمورها بنفسها، بسبب غباؤها وعجزها عن فهم الأمور، لذلك - إن حُلِّيت ونفسها- سوف تتسبَّب بخلق مشكلات كثيرة، وتاليًا ينبغي أخلاقياً أخذ المبادرة عنها في إدارة أمورها بواسطة طبقة متخصَّصة من الرِّجال الذين يتمتَّعون بدرجة من الذكاء تُتيح لهم فهم الأمور وإدراكها. وهذا ما أرجعه الكاتب أيضًا إلى مبدأ «لينين» القائل بأنَّ طلائع المفكرين الثوريَّين لا بُدَّ من أن يستولوا على السُّلطة عن طريق توظيف ثورات شعبية لتكون إحدى الوسائل

التي من شأنها أن تدفع بهم إلى سدّة الحكم، ثمّ تدفع الجماهير الأغبياء الدّهم باتجاه مستقبل غير قادرين أو غير مؤهلين لفهمه أو وضع تصوّر له؛ وذلك لشدّة غبائهم وعدم أهليّتهم.

3. العلاقات العامّة:

يطرح الكاتب في هذا العنوان أهميّة العلاقات العامّة بكونها وسيلة لنشر الديمقراطيّة بالمفهوم الثّاني، وتعدّ الولايات المتّحدة - بالنسبة إليه - الرّائدة في هذا المجال؛ لتفوّقها في الالتزام بمبدأ السيطرة على العقل العامّ. فالعلاقات العامّة هي صناعة ضخمة يُنفق عليها ما يقارب البليون دولار سنويّاً لمواجهة تحديّات كادت تحرف الديمقراطيّة بمفهومها الثّاني عن مسارها المرسوم لها؛ إذ شكّل قانون «واجنر» الذي يُعدّ أوّل نصر تشريعيّ للحركة العماليّة تحديّاً كبيراً وانحرافاً ديمقراطيّاً خطيراً. فوفقاً للديمقراطيّة بالمعنى المقدم، ينبغي أن لا يكون النّاس منظمين؛ لأنهم سيتحوّلون إلى شيءٍ آخر غير كونهم مشاهدين فقط، وسيستطيعون أن يُحقّقوا انتصارات تشريعيّة من شأنها أن تجعل القرار بأيديهم، وهذا أخطر ما يمكن أن تفرزه تلك الانحرافات.

لذلك، تقع على عاتق رجال الأعمال الذين يبذلون الأموال والاهتمام والفكر مسؤوليّة التعاطي مع هذه المشكلات وتقديم الحلول لها، من خلال صناعة العلاقات العامّة، بالاعتماد على وسائل دعاية احتياليّة وفعّالة من شأنها أن تُحوّل عمّة الجمهور المناوئين للإضراب وتقديمهم على هيئة مُخربّين ضدّ الجمهور والمصالح العامّة. وقد اعتُمِدَت هذه السياسة وطُبِّقت مراراً وتكراراً للقضاء على أعمال الإضراب، وأُطلق عليها لاحقاً صيغة «وادي موهوك».

وهذا الأسلوب لا يزال متبعاً وفاق التّصوّر الخاصّ للديمقراطيّة؛ إذ يحاول العاملون في مجال العلاقات العامّة تلقين القيم الصّحيحة، وفاق رؤيتهم همّ، حول ما يجب أن تكون عليه الديمقراطيّة من نظام يُسمح فيه للطبقة المتخصّصة بالتدرب للعمل في خدمة السّادة الذين يملكون المجتمع. وينبغي، وفقاً لهذا النّظام، حرمان بقيّة المجتمع من أيّ صورة من صور التّنظيم، بحيث ينبغي أن يكون المجتمع دائماً مفكّكا ومنشقا؛ ذلك أنّ القطيع الضّالّ يُعدّ مشكلة، وعلينا منعه من الرّئيس ووقع الأقدام، وهذا يحصل عبر إلهائه عن القضايا الأساسيّة بما يُقدّمه الإعلام من مسلسلات وبرامج تساعد على إبقائه على هذه الحال.

4. إدارة الرأي العام:

يُبين الكاتب في هذا العنوان كيفية إدارة الرأي العام المُسلم الذي لا يجد أي سبب للتورط في عمليات العنف، وفي تأييد السياسات الخارجية التي تتبعها الدول، ومنها الولايات المتحدة، والتي تقتضي توظيف القوة العسكرية حول العالم لتحقيق أهداف النخبة المحليّة. ويشير الكاتب إلى أنّ الطريقة الفعّالة المتّبعة في تلك السياسات هي إثارة مخاوف الرأي العام حول الحفاظ على النفس وحمايتها، في ظل هجمة وحشيّة يشنّها الآخرون. وكان للدعاية والإعلام الدور الأساسي في ذلك عبر تزييف التاريخ، وتقديم صورة عن العالم أبعد ما تكون عن الحقيقة؛ ل يبدو أنّ المسوّغ لاستخدام العنف هو الحماية والدفاع عن النفس ضدّ المعتدين والوحوش. وقد نجحت في أن تفرض احترام القوة العسكريّة، وأن توجد مسوّغاً في نفوس تلك الشعوب لتوظيف العنف تجاه عدوّ وهمي من اختلاقها، وأن تمنع تهديد انحراف الديمقراطيّة في إطار من الحرية والتشويق.

5. ثقافة الانشقاق:

على الرّغم من بقاء ثقافة الانشقاق حيّة منذ الستينيات، يُبين المؤلّف كيفية ظهور العديد من الحركات الاحتجاجيّة مع قدوم السبعينيات، فازدادت المخاوف المرضيّة واتّسعت الفجوة، بعدما ظهر شكل من أشكال الحركات الشعبيّة المنظّمة، بالإضافة إلى منظمات غير رسميّة تُحقّق التفاعل بين الناس الذين يتشاركون الأفكار نفسها، ومنها الحركات النسائيّة. وقد شكّل تطوّر تلك الحركات تهديداً للديمقراطيّة، لما يمكن أن تخلقه أفكارها من جمهور مُنظم غير مشتمت، تنشط لديه المخاوف المرضيّة.

6. استعراض الأعداء:

يستعرض المؤلّف سياسة الولايات المتّحدة في خلق عدوّ وهمي لتشتيت انتباه القطيع الضالّ عمّا تواجهه الولايات المتّحدة من مشكلات محلّيّة واقتصاديّة متزايدة، والتي من شأن الالتفات إليها تنبّه ذلك القطيع إلى وجود مشكلات حقيقيّة. وبما أنّ مشاهدتهم لمباريات الدوريّ والمسلسلات القصيرة لم تعد بالأمر الكافي، كان لا بُدّ من الاستمرار في إثارة الخوف من الأعداء في نفوسهم. وبما أنّ نجم الرّوس قد خفت عن كونه الأنسب لاتخاذ دور العدو، كان

لا بُدَّ من إيجاد آخرين، ما اقتضى وجود هجوم إيديولوجي يؤدي في النهاية إلى خلق وحش وهمي يعقبه حملات للتخلص من هذا الوحش.

7. انتقاء التّصوّر:

يتحدّث المؤلّف في هذه الفقرة عن دور الإعلام في طمس المعايير وانتقاء التّصوّر، فبالرّغم من المبادئ التي يؤمن بها ثلثا سكّان الولايات المتّحدة من وجوب التّدخل بالقوّة لإنهاء أيّ احتلال غير شرعيّ، أو التّصدّي بالقوّة لمن يسيء إلى حقوق الإنسان¹، لم يلتفت هؤلاء أو يتوصّلوا إلى وجوب تطبيق هذه المبادئ على الولايات المتّحدة والسلفادور وتل أبيب وغيرها الكثير من الدّول التي ترتكب تلك الأعمال، ويعزو الكاتب ذلك إلى النّظام الدّعائيّ الجيد الذي نجح في أن يُخفي حقيقة الولايات المتّحدة وسياساتها.

ويعطي الكاتب أمثلة على ذلك؛ منها «إسرائيل» التي بالرّغم من كلّ ما قامت به من إرهاب وعنف وتعذيب وغزو لبيروت ومهاجمتها بالقنابل وسقوط حوالي 20,000 قتيل 80% منهم مدنيّون، لم يُطالب أحد بمهاجمة «إسرائيل» بالقنابل؛ مع أنّ ما تقوم به هو احتلال غير شرعيّ وانتهاك لحقوق الإنسان؛ وذلك لأنّ «إسرائيل» مدعومة من الولايات المتّحدة. وعلى الرّغم من المبادئ التي يؤمن بها ثلثا سكّان الولايات المتّحدة، لم تظهر أيّ مناقشات حول ما إذا كان على إسرائيل والولايات المتّحدة مراعاة قرار مجلس الأمن 425 الذي يطالب بالانسحاب الفوريّ وغير المشروط لإسرائيل من لبنان، وهذا ما يُظهر بشكل صارخ انتقاء التّصوّر وازدواجيّة المعايير.

8. حرب الخليج:

يستعرض الكاتب حرب الخليج تفصيلاً، مُبيّناً كيف أنّها تعدّ مثلاً واضحاً على أنّ النّظام الدّعائيّ الجيد الذي تستخدمه الولايات المتّحدة يُحقّق نجاحاً في تبرئتها من كلّ ما تقوم به أو تدعمه من احتلال غير شرعيّ وإساءة لحقوق الإنسان، ويُجرّم سواها إن قام بذلك، حتّى أنّ النّاس - على الرّغم من احترامهم مبدأ أنّ الاحتلال غير الشرعيّ والإساءة لحقوق الإنسان لا بُدَّ وأن يُجابّه بالقوّة، لكنهم لا

1- وفاق دراسة قامت بها جامعة «ماساتشوستس»؛ إذ سُئل النّاس في الولايات المتّحدة إذا ما كانوا يعتقدون بأنّه ينبغي على الولايات المتّحدة التّدخل بالقوّة لإنهاء أيّ احتلال غير شرعيّ أو الإساءة إلى حقوق الإنسان، فكانت نسبة الإجابة بالإيجاب اثنين إلى واحد.

يعرفون معنى أن تُطبَّق تلك المبادئ ضدَّ سلوك الولايات المتَّحدة نفسها؛ ما يُدلِّل -بحسب الكاتب- على نجاح هائل للأساليب الدَّعائية.

9. الصَّحفيُّ القادم من المَرِيخ:

يُبيِّن الكاتب كَيْفِيَّة معالجة وسائل الإعلام موضوع الحرب على الإرهاب، وكَيْفِيَّة معالجة تلك القِصَّة الخَبْرِيَّة بما يتوافق مع المبادئ العامَّة المتَّفَق عليها. لذلك، فقد أحوال التَّقرير الصَّحفيِّ عن هذا الخبر «الحرب على الإرهاب» إلى صحفيِّ موضوعيِّ، وجعله ينتمي إلى المَرِيخ ليقوم بمراقبة خارجيَّة للأحداث؛ كي يستنتج من المعطيات التي عاينها بأنَّ تعريف الإرهاب يختلف ويأخذ طابعًا مختلفًا عمَّا تقتضيه البديهيَّات المفهوميَّة لذلك المفهوم.

كما أنَّ السُّلوك نحوه يأخذ طابعًا بعيدًا عمَّا تقتضيه بديهيَّات المساواة الأخلاقيَّة، لَمَّا يتضمَّنه واقع المعالجة من ازدواجيَّة معايير؛ إذ ورد في تعريف الإرهاب في قانون الجيش الأمريكيِّ أنَّه «الاستخدام المحسوب للعنف أو التَّهديد باستخدام العنف لتحقيق أهداف سياسيَّة أو دينيَّة أو إيديولوجيَّة في الأساس من خلال التَّخويف وإدخال الدَّعر والإجبار»، ولكن وفاق السِّياسات المتَّبعة، ولَمَّا عاينه القادم من المَرِيخ، يُستنتج أنَّ الإرهاب هو «الذي يمارس ضدَّنا أيَّما كنَّا نحن».

لقد قدَّم الكاتب في هذا المجال الأمثلة الحيَّة الواقعيَّة للسياسات التي تعتمد عليها الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، وكذلك «إسرائيل» التي تُمثِّل أكثر مظاهر العنف وحشيَّة تُجَاه دول مثل لبنان وغيره. ولا يُعدُّ، وفاق مفهومهم، ما يُمارَس تُجَاه تلك الدَّول عنفًا؛ كون الجهة التي تقوم به هي الولايات المتَّحدة ومَن تدعمه. لذلك، نجد وسائل الإعلام تُضخِّم ما تعدُّه أعمال عنف تُجَاه الولايات المتَّحدة و«إسرائيل»، ولا ترى أيَّ ممارسة للولايات المتَّحدة و«إسرائيل» أنَّها عنف يجب أن يُقارب من مبدأ المساواة الأخلاقيَّة، وأن يحاسب وفاق المبادئ ذاتها التي يُحاسب بها الآخرون. فللولايات المتَّحدة الأميركيَّة الحقُّ في شنِّ حرب إرهابيَّة ضدَّ أفغانستان لتسليم المُتَّهمين الذين ترفض تقديم أدلَّة إدانتهم، وهو حقٌّ لا ينكره أيُّ شخص سويِّ. ما يعني أنَّ لسكان هايتي الحقُّ أيضًا في شنِّ حملة إرهابيَّة واسعة النطاق ضدَّ الولايات المتَّحدة حتَّى تُسَلِّم القاتل «إيمانويل كونستانت» الذي أُدين بقيادة قوَّات إرهابيَّة مسؤولة عن قتل 4000 إلى 5000 ضحيَّة.

وفي حين يعرض الكاتب في ختام هذا البحث تصوّرًا يعدّه عقلائيًا لهذه المعضلة، يتمثّل بتتبُّع مَنْ قام بأعمال العنف وتقديمه إلى محاكمة عادلة لمحاسبتة إن كان مذنبًا، إلا أنّه أغفل أنّ هذا الحلّ المقترح من الممكن أن ينجح فقط إذا كان الحُكّام أو القضاة من المريخ كذلك.